في ذكرى برنارد شو

بقلم خالد القشطيني

من المؤسف الا يستطيع المستر شو حضور عيد ميـــلاده المئة . ولكن عالم الفكر قد اقام ليوم ٢٦ من تموز الماضي ما تستحقه الذكرى المئوية لشو من الولاء . ونرجو ان نؤدي بعض الدين في هذا المقال الذي حاولنا فيه ان نتكلم بلسانه اخالد مقتبسين عباراته ما وجدنا متسعاً . إن كل فقرة داخل قوسين هي نص امين لشو . فلعلنا نستدعي روحه . خ. ق .

« عليك أن تجعل ديدنك في الحياة ان تقرأ كل اعمالي مرتين على الأقل في كل عام لمدة عشرة اعوام » هذا ما قاله برناردشو في مقدمة مجموعته الكاملة كيما يستطيع القارئ ان يفهمه . ولما كانت اعماله تضم ٤٥ مسرحية وما يزيد عليها من المقدمات وعدة اجزاء في النقد وكومة من الكراريس السياسية الاجتماعية وبعض القصص، فلا أظن أحداً وجد الى ذلك سبيلا. وهكذا ، فحتى بعد خمسة اعوام من وفاته، ما زال الخلاف في تقييمه على ما كان في اوله : يغالي قوم في حبه حتى يشركوا به ، ويغالي قوم في كرهه حتى يكفروا به . واذ ندرك ان ليس من جديد في خلاف مثل هذا ، تركه اي عبقري ، ندعه لفترة أقل اعصارا وتزلزلا . غير ان ما لا نستطيع ان نتركه بقدر مالا يمكن للخلاف ان يدخله هو ان شو كان « ضربة عظيمة » ، كما يقول اهل المسرح . فقد جمع من تآليفه ثروة لم يجمعها مؤلف قبله. في عام ١٩١٣ ومن «بجماليون» فقط جمع شباك التذاكر له ١٣٠٠٠ جنيه! وهذه نقطة مهمة في المسرح. إن المؤلف الذي لا ينجح مالياً لا يمكن ان يكون من الطبقة الأولى . ولكن شو كان اكثر من نجاح مالي . لقد احتل صدارة المسرح ما يقرب من اربعين عاماً كان فيها الاستاذ المحتذى : « المترجمون يصرخون ... الناشرون يصرخون ... إن مستقبل وشهرة كل شخص متوقفان على اسعافي له . » ان شعبية شخصيته نقطة مفروضة . واذا كان علينا ان نمضي في هذا المقال، فليس افضل من هذه النقطة المفروضة موضعاً للدرس . ما السر في هذا النجاح المكتسح ؟

ليس هناك سر . انها ببساطة الرسالة والحركة التي يتهجس دبيبها المفكر الفذ في زاوية من المجتمع، فيبادر اليها قبل غيره . لعل شو قبض على كل التحولات والضرورات الإجتماعية بصورة شعورية وعلمية واعية اكثر من اي اديب قبله . رجل نحيل مدقع الى يساره رأسمال ماركس ويمينه دليل اكسفورد للموسيقى، يقرأ الاثنين متناوباً آناً ومعاً آناً اخر ! كانت هي الصورة التي استرعت وليم آرجر اكثر من المجموعات المصرية والأشورية في المتحف

البريطاني . ما أظن شو ترك شيئاً لم يطلع عليه : من سيرة محمد الى اصل اجناس دارون. ومنهجه في ذلك منهج المادية العلمية . ولهذا فمن سخافات الاساتذة أن ينصحوا طلابهم المقدمين على امتحان في برناردشو بدراسة كل ماكتب عنه دون ان ينصحوهم بتصفح الكتب التي كتب هو بها : الماركسيات الكلاسيكية .

هذا هو تفكيره. وقد انصب هذا التفكير على فترة من احفل الفترات التاريخية بالمشاكل والفتن . في الداخل انتهاء العهد الفكتوري عفا الله عنه ، اصلاح مجلس اللوردات ، تحرر المرأة السياسي ، التجنيد الالزامي ، حرب البوير ، ظهور حزب العمال ، البطالة والاضراب العام ، الى آخر ما هنالك من مشاكل سياسية واجتماعية وصحية وثقافية. وفي الخارج السلم المسلح واتفاقياته الثلاثية ، اندلاع حروب مختلفة تكللت باول حرب عظمى ، انهيار الامية الثانية وقيام الثالثة ، الثورة البلشفية والاشتراكية قيد التجريب ، عروش وتيجان على قارعة الطريق دون أحد يعبأ بالتقاطها ، ظهور عصبة الأمم .. الخ . ومن وراء كل ذلك نزع عالم قديم ومخاض عالم جديد . تبلور ، استقطاب ، انكشاف . هذه كلها اشارات استفهام ارتسمت على كل وجه وامتدت بأذرعة سرطانية في كل رأس . وقد فطن شو الى ذلك وادرك من هو الصاعد ومن هو النازل ، كان لمسرحياته استجابة في ضمير الجمهور كرهوا أم اذعنوا.

إن موقفه دائماً هو موقف الثائر المتطلع الى الأمام : مع الشاب ضد الشيخ ، مع فاكنر وبتهوفن ضد باخ ، مع ابسن ضد كورنيل ، ومع نفسه ضد شكسبير ! « باستثناء هومر لا يوجد اي كاتب ، حتى ولا والترسكوت نفسه ، استطيع ان احتقره كلياً كما احتقر شكسبير عندما اقارن عقلي به » ، ومع وسلر والرسامين المحدثين ضد راينولدز « في الشهر الماضي تلقى ضربة قاصمة على يد الاكاديمية الملكية بافتتاح معرضها السنوي». هذا ما كتبه عندما كان ناقداً فنياً لفترة رغم قصرها جعلت منه أحد المؤسسين للحركة الانطباعية في انكلترا . واخيراً حتى مع الدراجة البخارية يمتطيها ويصدم بها عربة مارة ضد ماكنة جيمس وات واي ماكنة قديمة الطراز. هذا ماجره للاصطدام مع الجميع ، وزاد جذوة الاحتدام تعصب شو ورفضه اي مهادنة . ففي الوقت الذي باع به اقطاب الامية الثانية مبدأهم اثناء الحرب وارتموا مرتمى الشوفينية ، كل يصفق لعسكره ، أصدر شو كراسه الشهير « رأي سليم عن الحرب » وصرح بكل اندفاع « على الجنود ان يطلقوا الرصاص على ضباطهم وينصرفوا الى اهلهم ». وظل ينهال على ماكنة الحرب البريطانية حتى خشي أعز اصدقائه مجالسته وامتنع اخلص الممثلين من اخذ تصوير معه . وكانت البطاقات والرسائل تنهال على بيته وكلها قذف وسب . أما هو فقد اكتفى باعلان في الصحف اليومية قال فيه انه بالنظر لاستخدامه سكرتيرة امرأة تقوم بفتح بريده ، فيرجو كتاب مثل هذه الرسائل أن يضعوا على غلاف رسائلهم كلمة « مخلة بالأدب » . وهجومه دائماً لا يؤمن بالاعتدال ولا يستنكر المحاباة . قاس ، وقح .. تلك هي الصفات التي ألصقها الناس به. وعندما زار موسكو ظلت السلطات تعرقل زيارته لأرملة لينين وظلت صحف الغرب تقص عن سجن ستالين لها . ولكنه عندما تمكن من زيارتها اخيراً فهم منها انها هي التي كانت تعرقل زيارته لها خوفاً من وقاحته. ومثل ذلك ان هددت ممثلة امريكية بقتله اذا مسها بقلمه .

ومع ذلك فلم يكن شو وحيد عصره في التزامه الأدبي . إن جميع زملائه المسرحيين في الجمعية الفابية كانوا على الايمان نفسه . وصحيح ان شو فاقهم في ادراكه واطلاعه الواسع وشجاعته ، الا ان هذا وحده لا يفسر مطلقاً تلك الشعبية التي اجتاح بها العالم . — ما زال امامك ايها القارئ شيء .

هذا الشيء نفتش عنه في الاسلوب .. المشكلة التي يجابهها المسرحي المعاصر في الرجل الحديث ، والرجل الانكليزي خاصة ، هي خرسه . بالرغم من كل هذه الضوضاء وربما بسببها ، يخلد ابن العصر الى سكون مضجر . يعمل صباحاً أمام آلة اكثر اقتضاباً منه ، يأخذ القطار الى البيت وعينه مثبتة على صحيفة مسائية ، ويصله اخيراً ليختلي الى التلفزيون ويضيع اكبر فرصة على اكبر ماكنة كلام : الزوجة. فاين سيجد المسرحي فرصة لاقامة حواره ؟ يلقي الزوج صحيفته جانباً ويسأل زوجته ماكانت تعمل مع فلان ليلة أمس في الغابة ، فتجيبه كما في فلم « جنفيف » : « حقاً ! ولكن اتريد زوجة بدون خبرة ؟ » فيعود الزوج الى صحيفته والى صمته . يحدثنا شو كيف عاش مع امه ٤٢ عاماً ، ومع ذلك « فعندما أثارني موتها للتفكير ادركت انني عرفت القليل عنها». وهذا شأن الجميع . كل هذا طعن الروح الشعرية بالصميم وقضى على اي نوع من الفقرات مطولة خلابة حتى رأينا اخيراً كيف استخدمت « انتظاراً لكودو » الصمت كوسيلة تأثيرية بدل الحوار .

أما شو ، فقد اوغل وراء المظاهر فرأى مالم يره غيره. هذا الصمت الظاهري انما هو جليد يغلف سيلا جارفاً . فالزوج لم يكن زاهداً في اخلاص زوجته ولكنه مشغول باسئلة تعترك في ذهنه ولا شعوره تجعل من استجوابه لها لغواً صبيانياً . لم يسبق للانسان ان واجه مثل هذا الجبل من علامات الاستفهام ومثل هذا الاستفهام الذي يقرر موته وحياته . انه يريد جواباً أو على الأقل يريد احداً يحدثه عنه أو في اقل الاحوال ، اذا خانته الشجاعة ، يريد ناساً يتحدثون بينهم عنه . وهكذا تقدم شو بطريقته الجدلية المباشرة في العرض . وكان أن صعد النقاد حواجبهم : « مجرد محادثات ! » أما شو فقد تحداهم بان يأتوه بمسرحية هي ليست محادثة ، كأن تكون رقصاً مثلا .

وهكذا في ظروف كان الرفض فيها مصير اية مسرحية تحوي على فقرة تزيد على خمس او ست جمل ، تقدم شو بخطب رنانة وسيلوكات تعيد للأذهان مقطوعات شكسبير السابحة وباسلوب اشبه بالاوبرا . ولا شك ان دراسته للموسيقى ولاوبرات فاكنر لعبت دورها . ولكن الأثر الرئيسي هو شخصيته الاقرب المفكر منها الى المسرحي. إن شو من القلائل الذين تطفلوا على المسرح. والمرة الوحيدة التي جابه بها الجمهور كممثل كانت في « بيت اللعبة » لابسن ، وقد فعل ذلك نزولا عند طلب ابنه كارمل ماركس التي قامت امامه بدور البطلة . وفيما عدا ذلك فما أظنه قام باي قسط عملي آخر. إن مكانه لم يكن في المسرح. انه رجل جمعيات و مؤتمرات و لجان . وهو خطيب في النادي ، مهذار في البيت . وكلامه عذب والقاؤه بليغ . وقد كان مجرد سماع الممثلين له وهو يقرأ مسرحيته عليهم سبباً لعقد نفسية وشعور بنقص يقعدهم عن الاداء . وهذه الطبيعة المتزاوجة مع غرضه بوعظ المجتمع جعلت من مسرحه ما يسمونه اليوم « بتكنيك المنبر » « كلام وكلام.. لا شيء غير الكلام .. لقد عييت ذرعاً به » هذا ماقالته احدى بطلاته في رواية كلها حقاً كلام . وسواء أعيينا أم تصبرنا فما لاشك فيه ان المناقشة وحدها لا يمكن ان تقيم عملا فنياً . لا احد يستطيع ان يهضم ثلاث ساعات منها . وهنا يأتي اللون الأخير وهو الصفة التي تميز شو حقاً بها ، وهي الهزل . « وظيفتي ككاتب كلاسيكي كوميدي هي ان أصلح الاخلاق بالتهكم . »

وهكذا فالموقف غدا ان تعالج مشاكل العالم بطريقة جدلية مباشرة وبطعم كوميدي لطيف وتضمن لنفسك النجاح . ولكن النجاح كان حليف حتى بود ابوت ولوكوستيلو. فما الذي جعل من نجاح شو قضية خاصة هي قضية العبقرية الخلاقة ؟ لا بد لكل شاعر من جواز مرور الى وادي عبقر ، وجوازه دائماً هو ابتداع جديد يحدثه في عالم فنه . وابتداعات شو لا يمكن حصرها ، فما كان يفرغ من طريقة حتى يأتي بغيرها . وفي الوقت الذي تجاوز فيه عتبة الشيخوخة كان اكثر حيوية وشباباً من اي شاب في عالم الأدب . غير ان الاختراع الذي جاء به وتجلى في كل ادواره هو ذلك التكنيك الذي جعل الجد والهزل ، الدرام

والكوميديا ، شيئاً واحداً . ليس بين مؤلفاته ما يحمل اسم كوميديا اوتراجيدياأو فارس .. الخ . ان لها اسماء هاالخاصة : رومانس ، اسطورة ، فانتازيا ..الخ . وهي كلها تختلف حسب المفهوم الذي وضعه لها . وكلها ايضاً جدية في مناقشتها ومثيرة للضحك في الوقت نفسه ، « لا تكون الحياة أقل هزلا عندما يموت أحد مما هي اكثرجدية عندما يضحك أحد » .

والواقع ان طبيعة الكوميديا ليست على ما نتصور بعداً من التراجيديا . ولقد لوحظت هذه الحقيقة منذ سقراط وافلاطون . كما لاحظ المحدثون ان انعدام روح الدعابة والكوميديا عند شعب او كاتب كثيراً ما يقتل المسرح تماماً ويخنق التراجيديا نفسها . وهو ما حدث عند الالمان وشعراء الحركة الرومانسية ؛ ولعله ايضاً من اسباب انعدام المسرح في التاريخ العربي . لقد كتب شكسبير تراجيديات وكوميديات عام ١٦٠٠ . إن الذي اخرج لنا « هملت » اخرج لنا « الليلة الثانية عشرة » . « ودرايدن » كتب « احتلال غرناطة » كما كتب كوميديا « الحب المكتوم » . ليس ذلك فقط . بل وفي المسرحية نفسها نرى مثلاً مشهد حفاري القبور في هملت ازاء عنفوان المشهد الذي يليه ، وماكبث يترك المسرح مضرجاً بدم الجريمة ليدخل البواب بمشهده الخالد Knock , Knock فيثير ضحكنا . واوسكار وايلد يبدأ « الزوج المثالي » بانواع من العبارات الظريفة البراقة ليقودنا الى نهاية على ارخص ما تكون من الحكميات والجديات ..

غير ان الواضح لأي قارئ – وارجو ان يكون منهم قارئي المحترم – هو ان هذه المواقف غير منصهرة تماماً في صلب الرواية . كثير من يحتج على حفاري القبور في هملت . على ل ، فما لاشك فيه ان مثل هذه المشاهد توخى منها شكسبير ما يتوخاه الموسيقي في حركته الثانية من السمفونية : ارضاء الاحتدام العاطفي واراحة اعصاب الجمهور في نوع في «الانتي كلايماكس» استعداد لمعركة اكثر تجهماً واعطاء تباين فني لها . اما الحال مع شو فمختلف جداً . لا يوجد في مسرحياته تلك الحركات في النسج . في اوج من الجد الفلسفي وعنفوان المصير القائم حول فكرة تائر الثورية في الانسان والانسان الكامل ، تدخل فابولت وبجملة واحدة يتهشم كل ذلك الجد ويجلس تائر على انقاض فكرته اضحوكة للجمهور .

في محاضرة له على طلاب معهد التمثيل ، اعترف بانه لايمكن ان ينبغ ككاتب تراجيدي لسبب واحد هو انه لا يستطيع ، ان يفترق مع روح النكتة . في اهنف المواقف العاطفية يعثر بنكتة لا يستطيع كبتها تقلب الموضوع على عقبيه. كان هذا أمر نقد وجه اليه. لقد لامه تولستوي شخصياً على استهزائه بالمواقف الجدية ووصفه ويلز بانه : « طفل معتوه يضحك في مستشفى . » وضح الرقيب منه لانتهاكه كل حرمة . ولم يطرب شو شيء اكثر من ذلك « اذا لم تقل شيئاً بطريقة استثارية فخير لك الا تقوله ما دام لن يزعج الناس انفسهم بشيء لا يزعجهم . » اذن فهزل شو لم يكن اغنية رخيصة في فلم ليوسف وهبي ولا كان غاية في ذاته كمسرحية لكو نكريف . انه هزل الجد والواقعة والحقيقة . ومن هنا اختلف عن الأنواع الرئيسية الثلاثة للكوميديا . انه يختلف عن الكوميديا الرومنتيكية (شكسبير) بالتزامه وعظ المجتمع . وعن كوميديا المزاج Comedy of Humours (موليير) من حيث بعد هذه عن الواقع واصطناع اشخاصها . كما يختلف عن كوميديا السلوك Comedy of Manners في تحلل هذه وجريها وراء جمال العبارة المجردة .

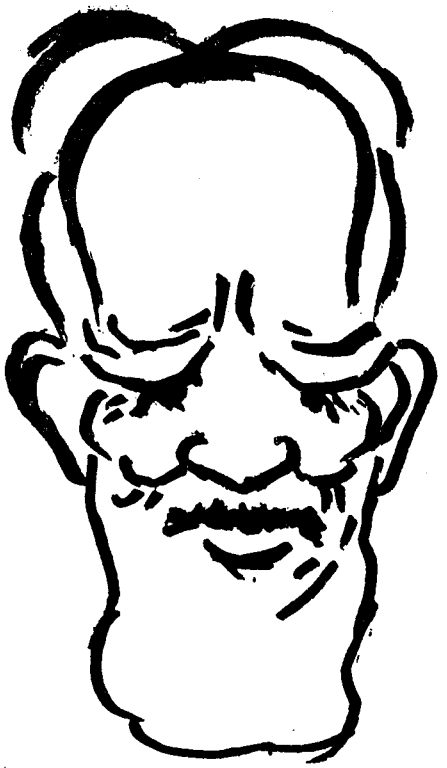

« ليست الحياة عندي « شمعة ذاوية » . انها نوع من شعلة بهية حملتها الآن ، وأريد ان أجعلها تتقد أكثر ما يمكن اتقاداً قبل تسليمها للأجيال القادمة . »

ومع ذلك فالغريب ان كوميديا شو تضم هذه الفضائل الثلاث تحت جناحها ، ولكن مع الفارق. فبينما نرى شخصية مصطنعة كألسست عند موليير تحتل كل الموضوع ، نراها عند شو تأخذ الدرجة الثانية ، كالقس الانكليزي في القديسة جون ، لتفسح بل وتحمل على اكتافها عملياً الموضوع الرئيسي والشخصية العميقة جون . وبالاضافة الى ذلك فاذ تمثل شخصيات كوميديا المزاج صفات (امزجة) مجردة لا وجود لها خارج عقول معلمي المدارس الابتدائية كالجشع والبخل والخداع .. الخ ، تقوم انماط شو لا بتمثيل صفات مجردة بل قوى اجتماعية ؛ في نفس الرواية يمثل ورك الطبقة الارستقراطية بينما يمثل كوشون الكنيسة ويمثل حوارهما النزاع المرير الذي قوض اوربا القرون الوسطى : « سيدي ، لن نقوى على دحر الفتاة اذا ما بينا ضد بعضنا البعض . انني ادرك جيداً ان هناك رغبة للسلطة في هذا العالم . واعرف انه ما دامت هي في الوجود سيكون نزاع بين الامبراطور والبابا ، بين الدوقات والاساقفة السياسيين ، وبين النبلاء وبين الملوك » حتى يصلا اخيراً الى الاتفاق على لسان ورك : « حسناً ، اذا حرقتها كبروتستانتية فسأحرقها أنا كوطنية . »

ويختلف ايضاً عن اصحاب كوميديا السلوك في تكلف العبارة هنا . عند اوسكار وايلد مثلا تسأل ستفليد صاحبتها عن السر في انفساخ خطبتها فتجيبها : « طيب ، سأقول لك ذلك على شرط ان تعديني بكل امانة واخلاص ان تنقليه للجميع . » العبارة أخاذة بدون شك ولكنها غير ممكنة ولا معقولة . ولنقسها بعبارة شو حول الموضوع نفسه : « لاسر هناك احسن حفظاً من الاسرار التي يحزرها الجميع » لنتصور الفارق في الصحة والواقعية . « فتش عن الشيء الصحيح الذي عليك ان تقوله ثم قله بأدنى ما يكون من الاكتراث . »

وهكذا بتسخير الانواع المعروفة من الكوميديا والتوجه صوب المشاكل الإجتماعية الأبسنية وتركيز التفكير العلمي واستخدام الاسلوب الجدلي في الحوار توصل شو الى نوع جديد من الكوميديا هو ما نعرفه الآن من بعده بكوميديا الافكار . إن الهزل يقف على اكتاف الارقام والاحصائيات بكل تقديس. إن علم الاقتصاد « لعب عندي دوراً مهماً اهمية علم التشريح في اعمال ميخائيل انجيلو » فهل سبق لمثل ذلك في التاريخ ؟ قطعاً لا. إن شو يغرقنا بصحائف وصحائف من نقاش كله علم وكله مشكلة انسانية وكله خفة دم ودعابة :

نورا : وتريد ان تقول لي وجهاً لوجه انك قضيت عمرك في الحب .

برودنبت : يا إلهي ! نعم .

نورا : فأنا لست حبك الأول !

برودنبت : الحب الأول هو مجرد سخافة صغيرة وكثير من حب الاطلاع . لا توجد سيدة محترمة تستغل مثله . كلا ، عزيزتي نورا ، لقد فرغت من ذلك منذ زمن طويل. شؤون الحب تنتهي دائماً بمشاجرات. اننا لا نريد أي مشاجرات . اننا نريد بيتاً ذا اركان اربعة : رجل وزوجة ، راحة وتفاهم . مع كثير من الود . ها ؟

أو كما في قيصر وكليوباترة :

تيودوتس : رعب لا يوصف ! ويلاه ، اسفاه ! النجدة !

روفيو : ماذا حدث يا رجل ؟

تيودوتس : لقد انتشرت النار من سفنكم . ان اولى عجائب الدنيا السبع في هلاك . مكتبة الاسكندرية في لهيب .

رفيو : بش !

قيصر : اهذا كل شيء ؟

تيودوتس : كل شيء ! قيصر ! اتريد ان تذهب للاجيال القادمة كجندي بربري من الجهل على درجة بحيث لا تعرف قيمة الكتب ؟

قيصر : تيودوتس ، انني شخصياً كاتب . وانني اقول لك ان من الافضل للمصريين ان يحيوا حياتهم من ان يحلموها في الكتب .

تيودوتس : قيصر ، مرة في كل عشرة اجيال من البشر يحصل العالم على كتاب خالد .

قيصر : إنه ان لم يتملق الناس أحرقه المنفذ العدلي .

تيو دوتس : بدون التاريخ سيضعك الموت الى جنب أخس جنودك .

قيصر : سيفعل الموت لك في اي حال . وانا لا اطلب قبراً اشرف .

تيودوتس : ما يحترق هناك هو ذكريات الجنس البشري .

قيصر : ذكريات مخزية . دعها تحترق .

تيودوتس : اتريد حرق الماضي ؟

قيصر : اجل ، وبناء المستقبل على انقاضه .

هذا هو الحوار الذي أغدق على شو الوف الجنيهات واحدث الحدث في عالم الأدب واقلق لب اصحاب الكراسي . « لو كان برناردشو في وزارة الخارجية لاندلعت الحرب بعد شهرين . » هكذا قال متحدث مسؤول بريطاني. وان كنت تريد جواب شو على ذلك ، كما هي عادة اي قارئ له ، فاليك هو : « كلا يا سيدي ! انما لأن شو لم يكن في وزارة الخارجية فقد اندلعت الحرب فعلا بعد اربعة عشر شهراً . » ذلك اذن هو الحوار الذي لبى حاجات دفينه للملايين من المعذبين على الأرض .

قد تلقي احياناً النظرة على طريقة كتابة المؤلف ضوءاً كافياً على اسلوبه . يختلف شو (ومتى لم يختلف في شيء ؟) عن جمهور المسرحيين باعتماده مناقشة الفكرة اساساً لبناء روايته . فهو لا يحضر مسودات للحوادث ولا تخطيطات للاشخاص . انما يتناول القلم ويشرع حالا بالمضي في الحوار وكل شيء يلحق به آلياً ، ثم يعود للمراجعة التي لا تتناول الكثير في الغالب . انها طريقة اقرب ما تكون الى المقالة . ولم ذلك ؟ انا شخصياً لا أجد فرقاً كبيراً بين مقالاته ورسائله وبين مسرحياته . اسمع ما كتبه هجوماً على الدكتور باخ الذي شرع بمعالجة الناس بغدد من القرود وادعى ان عيبها الوحيد انها تكسب الانسان قسوة : « اكانت لجان التحقيق ومجلس النجمة بيوتاً للقردة ؟... اكان من الضروري تأسيس جمعية لحماية صغار القردة كما هو الحال في حماية الأطفال ؟ اكانت الحرب الاخيرة حرب قردة أم حرباً بشرية ؟ اكان الغاز السام من اختراع الحيوان أم الأنسان ؟ كيف استطاع الدكتور باخ ان يذكر كلمة قسوه في محضر القرد دون ان يحمر خجلا ؟ » وإن اجل ميدان لمثل هذه الصولات يجده القارئ في مصادماته الطويلة مع ويلز وخاصة ما تعلق منها بتجربة بافلوف الشهيرة . انها تذكرني دائماً بمعركة كلب مطرود وقطة فقدت صغارها . حيث وجد شو اندلع العجيج . وهذا بالذات هو ما اكسب رواياته تلك الصلابة والصلافة. فبينما نجد لكل كاتب عبارة رنانة خلدت في الأذهان مثل « التبذل سلوك الناس الآخرين » لوايلد و « قد يكون الرجل سيداً كاملا دون ان يمنعه ذلك من كتابة شعر رديء » لموليير ، نفتش لنجد انفسنا جميعاً نذكر لشو « Not bloody Likely » من « بجمليون ». وعلى من لا يعرف الانكليزية أن يسأل عنها ليدرك مدى البون . جرأة في قول ما هو صحيح عقلياً او ما هو مؤثر مسرحياً . هذه العبارة ظلت تعصف ضحكاً بالمشاهدين لاربعين سنة خلت . ومع ذلك لم يجرؤ أحد حتى على التفكير بها قبله .

واخيراً فلعلنا استطعنا ان نجلو السر في هذا النجاح الخاطف الذي حققه هذا الأنسان . فيا ليتنا ، وهو الأهم ، استطعنا في الوقت نفسه ان نشير الى كل قابع في برج ، ان هذا هو الطريق وان هذا هو مثال اليكم. إن المسرح لا يمكن ان يقوم على قلة من نفر كما يقوم الشعر أو الرسم. انه يريد مثل شو ، رجل أعمال يتوجه الى كل من في جيبه ثمن بطاقة ، الى المثقفين بالمسائل الذهنية ، الى المشتغلين بالمشاكل الإجتماعية ، الى المتدينين بقوة روحية (وإن لم تكن إلهية). الى العابثين بالفكاهة ، والى الجميع بفن مسرحي متطور . كوميديا المواقف وكوميديا الافكار ، وكوميديا السلوك كلها تتعاون لحشد القاعة . والا فما جدوى خطبة الجمعة في مسجد خال ؟

ويبقى لنا ان نتساءل : هل سيخلد شو ؟ الكل يسأل ذلك ، ولا احد يستطيع غير التاريخ . غير أن شو تجرأ فقال انه عندما تزول الفاقة ويبلغ الانسان مجتمعه الذي تطلع اليه « ستصبح رواياتنا التي تناولت الفقر والشقاء ، الوحيدة في تصويرها الصحيح لحياة الأكثرية الآن ، آثاراً يقرأ هافقط طلاب التاريخ والباتولوجيا الإجتماعية » وتحتل كوميديات شكسبير مكانتها في حياة من السعادة والرفاهية في مجتمع كامل .

أما انا فاقول : كلا يا جورج برناردشو ، لا يمكن لمجتمع ان يكون كاملا وقد اختفت فيه مسرحياتك من برامج الموسم !

لندن

خالد القشطيني

مكتبة هاشم

شارع سوريا

بيروت

تلفون : ٢٦٠٧٩

كتب ادبية ـ مدرسية ـ روائية

ادوات قرطاسية

مبيع ومشترى كتب مستعملة